ذاكرة مدينة مترعة بعبق البساتين والتكيات و(الخانات)

بعقوبة القديمة... ماذا تبقى منها؟

سعد محمد رحيم

سخت معها الجغرافية... ولم ينصفها التاريخ!

معنى تسميتها بالآرامية بيت الحارس أو بيت العقوبة.. فهل كانت سجناً يقضي فيه المحكومون مدد عقوباتهم؟

كل مدينة نسيج سردي.. فعل أشخاص، وتاريخ حكايات في الزمان والمكان، وأن تسرد عن مدينة مثل بعقوبة معناه أن تستدرج من ظلمة القرون الى فسحة النور أجيالاً من البشر، وسلالات من نخيل وفاكهة وفاختات وعصافير، وآلافاً من بنايات شيدت واندثرت ولم يبق منها حتى الأطلال، ومليارات لا تحصى من قطرات المياه جاءت وشربتها المدينة.. أو جاءت ومضت نحو أقاصي الجنوب.

مبنى السراي القديم - اتحادالادباء حالياً

مقدمة بيوت السوامرة - المنطقه المتاخمة لقنطرة خليل باشا

مقهى البغدادي - صوب نهر (خراسان) المقابل لمصرف الرافدين حالياً

سراي بعقوبة

نهر (خراسان) قنطرة جامع السوق

النافورة - وسط متنزه ١٤ تموز

بيت الحارس

نهرها.. عطر فاكهتها.. عتمة بساتينها الأليفة، نسغها الذي يصلها بقلب التاريخ، فمن يستطيع تتبع ذلك النسغ من دون أن يتيه في الدرب الوعر المقلق، المفتوح على اللانهاية، والغامض للشعر. فحين يتسرب جزء عظيم من إرث مدينة ما، ويضيع بين فجوات التاريخ، على الشعر أن ينبري ليجد في الأقل آثار ذلك الجزء وظلاله.

في الآرامية باعقوبا هي بيت الحارس أو بيت العقوبة، ويبدو أن أجدادنا قبل آلاف السنين اختاروا هذه البقعة النضرة بخضرتها ومياهها لتكون مكاناً للسجن يقضي فيه المحكومون مدة عقوبتهم. وعدها ياقوت الحموي في كتابه (معجم البلدان) قرية كبيرة تشتهر بالليمون. ومنذ القرن السادس عشر كانت منطقة ديالى تسمى بمنطقة (طريق خراسان). وفي سنة ١٨١٦ وصف الرحالة الانكليزي جيمس بيكنغهام مدينة بعقوبة بعد أن زارها قائلاً؛ بعقوبة قرية كبيرة مبعثرة تتألف من مساكن مبنيه من الطين وبساتين النخيل وحدائق وما شاكلها، مختلفة في بنيانها مع سوق بائس ومسجدين صغيرين، ولا يتجاوز عدد السكان الألفي نسمة كلهم من العرب، ويحكم المكان يوسف أغا التابع إلى أسعد باشا ببغداد.

ذاكرة وتواريخ:

وحين كان العراق ثلاث ولايات هي (بغداد والموصل والبصرة) كانت بعقوبة قضاءً تابعاً لسنجق بغداد إلى جانب أقضية عنة والرمادي وسامراء وخانقين ومندلي والكاظمين والكوت والعزيزية. وذكر الرحالة كارستن نيبور الذي زار العراق بعد العام ١٦٨٠ أنه زار خراسان من جملة مدن ولاية بغداد ويقصد قضاء خراسان حيث سميت المنطقة المعروفة الآن بديالى باسم خراسان. وكذلك أشار لذلك المنشئ البغدادي في العام ١٨٢٠ الذي دخل المدينة مع المستر كلاديوس جيمس ريج وكتب في وصف المدينة؛من بغداد إلى بعقوبة ثمانية فراسخ وبعقوبة من قرى خريسان وهي من الجانب الآخر لنهر ديالى، وعلى شطي ديالى وخريسان خمسون قرية معمورة،وفي هذه القرى أنواع الفاكهة والكروم، وفي وسط الطريق بين بغداد وبعقوبة ببعد أربعة فراسخ خان النص المعروف عند العرب بخان بني سعد، وبالقرب من شط ديالى بني خان سمي خان السيد، وسكانه من أهل بعقوبة ويعبرون إليه بسفينة. وفي أواخر القرن التاسع عشر يقول كي لسترانج أن بعقوبة أول مدن طريق خراسان، وهي ذات بساتين ونخيل، وأن الطريق إلى المشرق صار يمر بها بعد خراب مدينة النهروان.

طريق خراسان

يقول الباحث المتخصص بتاريخ محافظة ديالى المحامي طه هاشم الدليمي أن سبب هذه التسمية هو في الحقيقة تخفيف للتسمية العربية القديمة لمنطقة ديالى عموماً والمعروفة بـ (طريق خراسان) وحذف الطريق للتخفيف، ثم زالت هذه التسمية ولم يبق منها إلاّ (نهر خراسان). ويقول الدليمي؛ أنه في عهد التنظيمات الإدارية العثمانية الحديثة عدّت منطقة (طريق خراسان/ أي ديالى) قضاءً سمي بقضاء خراسان وأصبحت الخالص وشهربان ناحيتين تابعتين لهذا القضاء، وقد عين عبدالله أفندي قائمقاماً له في عام ١٨٧٠، وكانت الحكومة العثمانية قبل ذلك قد قررت في عام ١٨٥٧ التشكيلة الإدارية لخراسان على أن يرأس وحدتها الإدارية قائممقام وذلك في ولاية السردار عمر باشا والي بغداد والأخير عين سليمان فائق بك قائممقاماً لقضاء خراسان، ويعد هذا الرجل أول قائممقام عين للقضاء واتخذ من بعقوبة مركزاً له. وبقي القضاء على هذه الحال حتى عام ١٩١١، وبعد الاحتلال البريطاني للعراق تغيرت التقسيمات الإدارية للعراق حيث قسم إلى اثني عشر لواء بموجب المادة الأولى من نظام الانتخاب الصادر في العام ١٩٢٢ ومن هذه الألوية كان لواء ديالى.

رحالة وطرق:

ظلت بعقوبة كياناً عابراً في انطولوجيا المكان، أو هكذا أراد لها من مروا بها.. لم تزدهر إلاّ لماماً، غير أنها كانت على الدوام منسجمة مع ذاتها ومع الطبيعة، ومع العالم، مكتفية بما عندها، ومنطوية على بذرة حياتها الفريدة التي تحلم بها. ولعل ها هنا يكمن سر ديمومتها.. رغبتها العارمة في أن تبقى وأن تكون. يوغل طه الدليمي في تضاعيف القرون ليتحرى عن طرق المواصلات أولاً التي كانت تصل بعقوبة بغيرها في غابر الزمان فيقول؛ في العصر العباسي كان الطريق من بغداد إلى مناطق ديالى يمر بمدينة النهروان وهي جنوبي محطة كاسلر بوست القديمة، وفي شمال الإمام المعروف بأبي العروج بعد مروره بأراضي سامي الأورفة لي وديرتيرما ثم الدسكرة (أسكي بغداد) ثم شهربان وجلولاء وخانقين، وكان هذا الطريق القديم في الأرجح لا يمر ببهرز وبعقوبة، وتبدل الأمر في آخر العهد العثماني. يستشهد الدليمي بما يذكره ستيفن لونكرك؛ بأنه كان يتفرع من ضواحي بغداد الشمالية طريقان بزاوية حادة يمر الشرقي منهما بخان سماه الأتراك بـ (أورطة خان) أي (خان النص) ثم يصل إلى معبر ديالى في بهرز ومن ثم يحاذي بساتين قرى بعقوبة وقلعة شهربان، ويمر بين تلال منخفضة/ تلال حمرين/ فيخترقها إلى خانقين. كما يتحدث، وبحسب الدليمي أيضاً، باحث محدث عن طريق آخر يسير جنوباً بمحاذاة نهر ديالى من جهته الشرقية ماراً ببهرز حتى يصل إلى مصب ديالى في دجلة ومن ثم المدائن،وكان هذا الطريق يمر بصحراء لا يأمن سالكه من قطاع الطرق حتى بنى الوزير عمر باشا (خاناً) محكماً في عام ١١٠٠ هو خان بني سعد ولا تزال آثاره باقية حتى يومنا هـــذا.

وصف ياقوت ايضاً

يقول روبرت آدمز أن بعقوبة لم تذكر كثيراً في الكتب القديمة على الرغم من قدمها، والسبب كما يرى هو عدم مرور الطرق القديمة بها، وحين تحول طريق (خراسان) نحو الشمال وأصبح يمر بها بدلاً من مروره بالنهروان تردد ذكره وكثر.

ويرى الباحث الدليمي أن وصف ياقوت الحموي ظل منطبقاً عليها حتى بدايات القرن التاسع عشر، ومذ ذاك وصفت ومن خلال رؤية أحد المسافرين بأنها بلدة كبيرة تعرف باعتدال مناخها وكثرة مراعيها وجودة تمورها تتبعها عدة قرى ويحكمها ضابط يعينه الباشا كل سنتين أو ثلاث. وشاهد عيان آخر وصفها في عام ١٨٢٠ بأنها قرية واسعة منتشرة تتكون من بيوت مبنية بالطين وبساتين ومزارع مختلفة وفيها سوق فقير وجامعان صغيران ولا يزيد عدد سكانها على الـ ٢٠٠٠ نسمة وكلهم من العرب، وهي بإمرة يوسف أغا، وهو خاضع لأسعد باشا والي بغداد، وذكر شاهد آخر مر بها في عام ١٨٢٤ بان الخراب الشامل أصابها بسبب احتلالها من قبل جيش محمد علي ميرزا حاكم كرمنشاه، ثم وصفت بعد ذلك بعشر سنوات بأنها تزيد كثيراً على كومة خرائب، وبحسب رحالة فرنسي في عام ١٨٤٥ فإن الحياة قد عادت إلى سوقها وجامعها وعدد بيوتها ٨٠٠ بيت.

عن الخارطة القديمة:

بعقوبة نشيد شجي يسري مع أنفاس الشجر، وأحلام الطيور المهاجرة، تغادرها مترعة بالدمع، وتؤوب إليها بفائض الحنين، وهي مثل أي موطن للبشر كانت تتكئ على كتف نهر، وكان النهر في هذه المرة ديالى، وكانت بعقوبة في سالف الزمان والعصر والأوان تتفتح مثل وردة عظيمة على الضفة الشرقية للنهر، وكان نهر خراسان يقطعها كالسيف من منتصفها.. يقول طه الدليمي: كان الأصل في تسمية النهر بخراسان هو خراسان يوم كانت المنطقة كلها تسمى (طريق خراسان)، وما زال الأهالي يسمونه هكذا على الإمالة وقلب الألف ياء، بيد أن تسمية هذا النهر في كتب البلدان العربية القديمة هي جلولاء. ويضيف الدليمي: في الجانب الغربي من نهر خراسان كانت هناك محلة السراي نسبة إلى بناية السراي، والسراي في العهد العثماني هو دار الحكومة، وقد جددت البناية في عام ١٩٢٣ وما زالت قائممام حتى يومنا هذا، وحدود محلة السراي في العهد العثماني تبدأ من بستان مصطفى البندر شمالاً إلى محلة الأكراد و(المعدان) (مقبرة اليهود) وقد ألغيت هذه المقبرة قبل الاحتلال البريطاني للعراق بخمسين سنة. وفي سنة ١٩١٣ أمر قائمقام بعقوبة فائق بك بنقل الأكراد (والمعدان) إلى المنطقة التي تعرف اليوم بالعنافصة، وشيدت مدرسة ابتدائية في الموضع المذكور سميت بالأميرية.

طرف الفايزية

ويستغرق الدليمي بالتفاصيل الجغرافية التي كانت عليها مدينة بعقوبة حينذاك فيقول: كان بستان أم الفائز في جنوب مدرسة الوثبة الحالية وحدودها من قنطرة خليل باشا إلى بستان مصطفى البندر، وقد أنشأ بعض الأهالي على قسم من أرض هذا البستان دوراً فتكونت محلة سميت بمحلة طرف الفايزية وذلك في عام ١٩١٥، أما في الجانب الشرقي لنهر خراسان فكانت ثمة بساتين وخانات ودور متناثرة، وهذا الجانب سمي بمحلة التكية لوجود تكية فيه في موضع مصرف الرافدين الحالي، وكانت حدود المنطقة تمتد من منطقة جامع الشابندر الحالي وما خلفها شمالاً إلى منطقة حمام الرشيد القديم جنوباً.

يعود الدليمي إلى وصف المدينة فيقول: فضلاً عن محلتي التكية والسراي كانت هناك أيضاً محلة الأكراد في جنوب السراي، ومحلة طرف الكنث، وأم الكبة، ويبدو أن المحلتين الأخيرتين أنشئتا بعد سنة ١٨٩٤ أي بعد أن شيد الحاج محمود الشابندر (خان) الشابندر، وفي الجهة ذاتها كانت قبة الشيخ الصالح أبي محمد عبد الحق البعقوبي الحوزي، وتلك القبة هدمت قبل الاحتلال الإنكليزي بعشر سنوات، أي في عام ١٩٠٧، وتذكر السالنامه العثمانية أن بعقوبة في عام ١٩٠٩ كانت تتألف من ٨٠٠ دار و٧٠ دكاناً و١٤ مقهى و١٢ (خاناً) وثماني علاوي وحمامين وجامعين ومدرسة رشدية واحدة وثلاث مدارس ابتدائية ودار للحكومة (السراي) ودار للبلدية ودائرة للبريد ومستوصف واحد.

خانات

وفي ذلك الزمن. والكلام لا يزال لطه الدليمي. كانت الخانات تقوم مقام الفنادق، وكان في بعقوبة عدد من هذه (الخانات) موزعة على جانبي المدينة، ومنها (خان)عزرة في منطقة السراي وهدم سنة ١٩٦٩ (وخان) الوقف في المحلة نفسها وهدم سنة ١٩٥١ (وخان) بندر في جانب محلة التكية في موضع السوق وقد نقض حديثاً، (وخان) البوسطجي في الموضع المعروف حالياً بسوق الحاج مهدي الكرطاني، وخان الشابندر الذي شيد في عام ١٨٩٦، وخان السيد خليل السامرائي وقد اشتهر لأنه اتخذه علوة لبيع الفواكه والخضر إلى أواخر سنة ١٩٦٦ وما زال قسم من هذا (الخان) قائماً حتى يومنا هذا.، وخان السيد وعرف بعدئذ (بخان) اللوالوة وقد ورد ذكره في رحلة المنشئ البغدادي (محمد بن أحمد) وقيل أن من أنشأه هو السيد مير الكاظمي في عام ١٧٩٥.

زهاد وتكيات:

لا شيء بقي من الإرث القديم سوى ذلك العبق العالق في فضاء الذاكرة، وحتى الذاكرة لم تعد تمنحنا الطمأنينة الكافية بأن ما تخزنه مصون وماكث في المكان الصحيح والأمين. وفي الأحوال كلها فالأمر بحاجة إلى إعادة ترتيب وإلى إعادة ترميم مستمرة، والبحث أبداً من أجل إبقاء الصورة، التي كانت حية إلى حد معقول على الورق، وفي ذاكرة الحاسوب. الآن وفي الغد. كذلك في ذاكرة البشر. ولكن مع هذا فإن كثيراً من الأشياء تركت آثارها الخفية في جغرافية المكان وتضاريس الطبيعة وسلوك الناس الذين يتحدرون في أصولهم من صلب أولئك الذين سكنوا ها هنا منذ مئات السنين. في اللهجة ربما، وفي العادات الراسخة، وفي التقاليد وفي الطقوس.

ويتحدث الدليمي عن التكيات التي كانت قائمة في المدينة قبل الاحتلال الإنكليزي للعراق فيقول؛ عاش في بعقوبة زهاد وصالحون، وكان هناك فيها مرقد للست مؤمنة التي يسميها الناس الست مومنية، وليست لدينا معلومات تاريخية عن هذه السيدة، وكان موضع مرقدها في السوق القديم الذي زال، وفي سنة ١٩٥١ هدم جزء من قبرها وبقي جزء، ثم أزيل بالكامل بعد توسيع شارع خراسان وتعديل مجرى النهر. ويعترض طه الدليمي على ما قاله الرحالة بيكفهام من أن بعقوبة في النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت تضم مسجدين ويقول، أنه كان في ذلك الوقت في المدينة مسجد واحد صغير هو جامع الوقف أو جامع السوق وقد نقض في عام ١٩٦٩ مع تعديل مجرى النهر، أما المسجد الآخر الذي ذكره هذا الرحالة فهو الرباط/ التكية الذي كان في موضع مصرف الرافدين الحالي على نهر خراسان، وقيل أن هذا الرباط كان لأحد أتباع الشيخ علي بن إدريس البعقوبي، مع أنه ليس هناك دليل تاريخي على هذا الأمر، وباسم هذه التكية سميت محلة التكية على الجانب الشرقي للنهر، وقد اتخذ هذا الرباط مدرسة ابتدائية إلى حين إنشاء الدولة العثمانية المدرسة الأميرية في محلة السراي سنة ١٩١٣ ثم هدم قسم من هذا الرباط بعد توسيع شارع الحسينية سنة ١٩٥٤، وكان هناك كذلك رباط الشيخ محمود وسميت به تكية الشيخ محمود وذلك قرب (خان) الشابندر، ولم يبق من هذه التكية شيء فقد زال أثرها بعد العام ١٩٥٨، وهناك رباط الشيخ أبي محمد عبد الحق بن محمود البعقوبي الحوزي وكان يقع في طرف أم الكبة، وقد زال الرباط وبقيت قبته التي تضم قبر الشيخ، ثم هدمت في حدود سنة ١٩٠٧، لكن ليس لدينا أي دليل تاريخي يثبت نسبة هذا الرباط إلى هذا الشيخ، فالمؤرخون لم يذكروا أن هذا الشيخ توفي ببعقوبة أو دفن فيها. وفي منطقة السراي يقع رباط قيل أنه للشيخ أبي المكارم محمد بن الفضل بن بختيار الواعظ البعقوبي، وقد هدم هذا الرباط وبقي قسم منه شيدته الأوقاف دائرة لها، والشيخ أبو المكارم البعقوبي ولد في بعقوبة سنة ٥٤٣ هـ وتوفي في داقوق سنة ٦١٧هـ وله ترجمة في مصادر تاريخية، وكان واعظاً في المدينة.

أما عن الجوامع في العهد العثماني. يقول طه الدليمي. وكما ذكرنا كان هناك جامع واحد هو جامع السوق ولعله كان قائماً منذ العصر العباسي، وفي حدود سنة ١٨٩٧ . ١٨٩٩ بنى الحاج محمود الشابندر جامعاً هو جامع الشابندر، ما زال قائماً حتى يومنا هذا، وذلك بعد سنة واحدة من إنشائه (الخان).

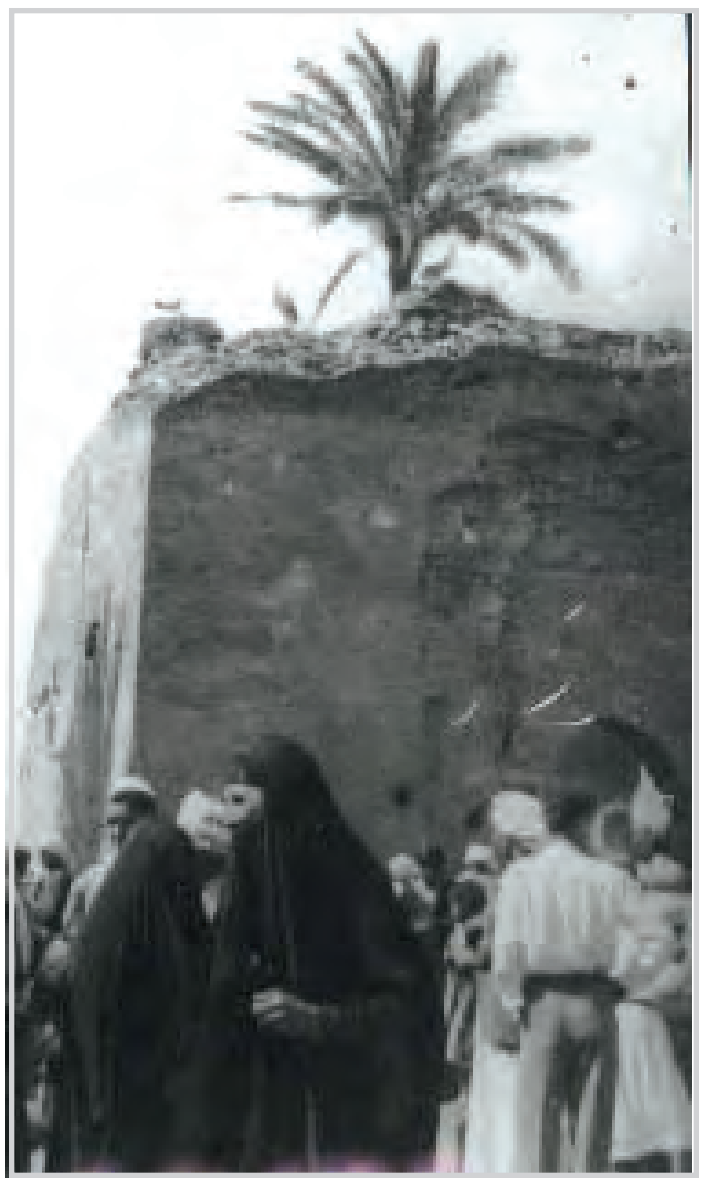
مرقد الامام (ابو ادريس)

وبعد...

كانت الطبيعة والجغرافية سخيتين مع بعقوبة، ولم يكن التاريخ كذلك معها.. لقد أزيل معظم ما كان، وليس في وسعنا في هذه الساعة إلاّ تتبع الأثر مستجيرين بما دون عن المدينة في بطون الكتب القديمة وهو شحيح، وما يعرفه الباحثون وهو لا يشبع الرغبة إلى المعرفة، وما تجترحه المخيلة، وهو غير أكيد.

تحت الضوء

معمل سمنت الكوفة يلوث المناذرة!!

أحمد مهدي صالح

وقع بين يدي بحث مهم تناول (الآثار البيئية لمعمل سمنت الكوفة... دراسة ميدانية) قام به إعداداً وتنفيذاً الباحث الدكتور كامل كاظم الكناني) وهو يشير في مقدمة بحثه إلى أن صناعة السمنت في العراق ذات مردود اقتصادي تنموي تعكس حاجة البلد اليها. داخلياً في عمليات الاعمار والتنمية وخارجياً لمتطلبات وتوفير العملة الصعبة. حيث تبرز أهمية هذه الصناعة في ان مكونات التربة في العراق ذات مرونة عالية في توفير المدخلات الرئيسة لصناعة السمنت (حجر الكلس والأطيان) غير ان هذه الصناعة ملوثة للبيئة ومن الصنف رقم (١) وهي المسؤول الرئيس عن تلوث عنصر الهواء في البيئة المحيطة بمواقع مشاريع صناعة السمنت. إذا لم تتم السيطرة على هذه الملوثات.

وذهب الباحث إلى صناعة السمنت تطرح نوعين من الملوثات اثناء عملياتها الانتاجية؛ وهما الغبار المتطاير في جميع مراحل الانتاج فضلاً عن الغازات والابخرة (كاربون، هيدروجين وغيرهما) الناجمة عن عملية احتراق الوقود المستخدم في عمليات التصنيع، وعليه فان المنطقة المحيطة بمشروع سمنت الكوفة تعد منطقة ملوثة بالغازات والابخرة والغبار وبنسب تتجاوز المسموح بها وطنياً، الامر الذي حدا بمديرية التخطيط العمراني وهيئة البيئة - في اوقات سابقة - إلى المطلب بايقاف النمو العمراني في قضاء المناذرة من جهة الشمال وباتجاه المشروع وان يكون النمو من جهتي الشرق والجنوب.

اما عن اسلوب الانتاج المتبع في المشروع فقد أكد الباحث على انه اسلوب الانتاج الرطب الذي من نتائجه ارتفاع نسب الملوثات المطروحة في الهواء هذا فضلاً عن استخدام (النفط الاسود) في العملية الانتاجية وهو ملوث بيئي خطير، وكل هذا يعكس آثاراً سلبية طبيعية واجتماعية - اقتصادية يصعب الفصل بينها تنجم عنها آثار سلبية صحية متمثلة بالامراض التي تصيب الإنسان اضافة إلى الاضرار التي تصيب التربة والمزروعات كذلك الاضرار التي تصيب واجهات الابنية والمنشآت العمرانية وتآكل الهياكل الحديدية والخشبية والنصب والرموز التاريخية والفنية وهو ما يؤدي إلى تكبد المجتمع تكاليف وخسائر فادحة يتطلب علاجها تكاليف كبيرة هي الاخرى.

ولغرض تفادي الاضرار المنوه بها اقترح الباحث:

١-السيطرة على الملوثات الناجمة عن صناعة السمنت (الغازات، الابخرة، الغبار) عن طريق الاجهزة والمعدات الفنية المتاحة (المرسبات الكروستاتيكية والقماشية) وغيرها من الانظمة والتقنيات الحديثة غير الملوثة للبيئة.

٢-التخطيط المسبق لتوقيع مشاريع السمنت بحيث يكون الموقع ضمن متطلبات البيئة لهذه الصناعة آخذين بنظر الاعتبار حركة الرياح السائدة والظروف المناخية للمنطقة.

هذا كلام لباحث بيئي عراقي عن احد مشاريع السمنت، درسه ميدانيا وحلله نظرياً. ونحن نقول كم من مشاريع السمنت الأخرى، غير مشروع سمنت الكوفة، يستحق من البيئيين مثل هذه الوقفة، عدا عن عشرات أو مئات الملوثات الأخرى من مشاريع وأنصاف مشاريع.